مشاهد من قصة لم تكتمل . .

الأخ نبيل شبيب

(1)

مع الأذان

انتفضت في مكانها وشدّت ذراعيها على طفلها وهي تسمع القرع الشديد على الباب ، و لم تقو علـــى التفـــوّه بكلمة ..

وتكرّر القرع ثانية وسمعت صوت زوجها يقول :

– افتحي الباب يا سميّة

فتنفّست الصعداء وهرعت إلى الباب تفتحه ، ودخل زوجها مسرعاً فابتدرته بالسؤال :

– ماذا جرى ؟ ..

– لا شيء .. لا تخشي شيئاً ، الجنود يرغمون أصحاب المتاجر على فتحها ..

– ومن لا يفعل ؟ ..

– يكسّرون باب متجره ويفسدون ما فيه

– وماذا فعلت أنت ؟ ..

– لا شيء .. ليفعلوا بالمتجر ما يشاؤون لن أفتحه هذه المرّة ولو فعل ذلك أهل البلدة جميعا ..

وسكت قليلاً ثم استأنف متسائلاً وهو يتخذ مجلسه :

– أين ياسر ؟

– ذهب منذ العاشرة ليلقى بعض أصدقائه من المدرسة ، لقد بدأت أقلق عليه

قال وهو يتابعها بنظراته :

– لا داعي للقلق ، لم يعد صغيراً وعنده من الحذر ما يكفي

قالت وهي تتشاغل بابنها متجنّبة النظر إلى زوجها :

– أما أنا فأجد فيه طيشاً وتهوّرا

– اتقي الله يا سمية .. أتريدين أن يسكت ويلتزم الدار في هذه الظروف ؟ ..

– لا بأس .. إنّما الجهاد لا يعني المخاطرة ..

– كأنّما تريدين استفزازي .. أو كأني بك تخشين عليّ أكثر من ياسر ..

فتوقفت عن حركتها الدائبة لتنظر إليه وتقول :

– ماذا تعني ؟ ..

– أنت تعلمين أنّهم لا يكتفون بعقوبة الولد بل ينتقمون من أهله

فظهر بريق في عينيها لم يستطع تفسيره ، وجلست إلى جانبه فأمسكت بكلتا يديه ، وخيّل إليه أنّه يرى في عينيها ستة عشر عاماً كاملة مرّت على زواجه بها ، وإذا بها تقول بصوت هادئ مطمئن :

– والله يا أبا ياسر إنّني لراضية بما يجري علينا معاً ، وليس لنا أن ندع اليهود يستقرّون في أرضنا لحظة واحدة ..

فشدّ على يديها وقد امتزج شعور الغبطة بشعور الفخر في دمعة حبسها تحت جفنه .. وقال بعد لحظات :

– قومي يا سميّة .. لقد أغفى عبد الله ، ضعيه في سريره ..

وانتزعت نفسها من مجلسها ببطء ، وحملت طفلها إلى الغرفة المجاورة فوضعته في سريره وعادت تقول وهي تغلق الباب خلفها نصف إغلاقة :

– لا أدري لم تأخر ياسر إلى الآن .. هل أضع لك الطعام ؟

– بل ننتظر قليلا .. قد اقترب موعد صلاة العصر ، وسأذهب إلى المسجد أولا

وما كاد ينتهي من وضوئه حتى سمع حركة أقدام جنود أمام باب البيت فقال لزوجه :

– اذهبي .. ضعي حجابك ، بسرعة

وغادرت الغرفة .. وطرق الباب بقوة ، ورافق الضجيج صوت خشن لم يشكّ أبو ياسر في أنّه صوت يهودي :

– افتحوا .. افتحوا الباب

وتمهّل أبو ياسر لحظات وهو ينظر لزوجه تختفي وراء باب الغرفة ، ثم تقدّم إلى الباب يفتحه والطرق مستمرّ عليه . واندفع داخل الغرفة ستة جنود شاهري أسلحتهم ، فأحاط به خمسة منهم ، ووقف أحدهم يجيل النظر في الغرفــة حوله ، ورأى الباب المجاور مفتوحاً نصف فتحة .. فتقدّم نحوه حذراً فسبقته سميّة بالخروج متقدّمة نحــو زوجهــا .. فوقفت خلفه

ونظر اليهودي إليها وقال بلهجة ساخرة :

– شالوم ..

ووجدت نفسها تجيب دون قصد :

– شالوم

وقهقه الجنود ما وسعهم ، وتقدّم قائدهم نحو سمية وزوجها فقال بلهجة يهودية معوجّة :

– أنت تتكلّمين العبرية ؟

وتراجعت إلى الوراء عندما مدّ يده نحوها .. ورفع أبو ياسر يديه ليدفعه بعيداً عنها ، فردّه بفوهة رشاشه وهــو يقول هازئا :

– مسلم .. خائف على الحريم ..

وهمّ أبو ياسر بالحركة فجذبته زوجه من ذراعه إلى الخلف ، وتابع اليهودي قائلا :

– حسنا .. حسنا ، نحن لا نريد امرأتك ، نريدك أنت .. أنت صاحب (متجر الأمان) .. صحيح ؟

قال أبو ياسر متمالكاً نفسه ؟

- نعم ، أنا صاحب متجر الأمان

- لماذا لا تفتح متجرك ؟ .. نريد شراء أشياء من عندك

وسبقت سمية زوجها إلى الجواب :

- زوجي مريض .. لا يستطيع العمل

وقهقه اليهوديّ مرة ثانية :

- مريض ؟

وتقدّم نحوه ، فشرع يدور حوله وسمية تلاحقه بنظراتها ، حتى وضع فوهة الرشاش بين منكبيه فجأة ودفعه دفعـــة قوية إلى وسط الغرفة .. وحاولت سمية التقدّم نحوه فحال جنديان بينها وبينه ، واضطرت إلى التراجع نحو الوراء مـــن جديد .. وما كاد أبو ياسر يعتدل في وقفته ، حتى سارع إليه جنديان آخران يرغمانه بسلاحيهما على الاســـتناد إلى الباب بظهره ، ووجّه قائد المجموعة سلاحه نحو سمية قائلا :

- هل تقدر أن تعمل أم لا ؟

واختلط الغيظ في عيني أبي ياسر بالخوف على زوجه ، فقال بعد لحظات :

- سأفتح المتجر فغادروا منـــزلنا

- نذهب سوية .. قلت لك نريد شراء أشياء كثيرة عندك

وتبادلت سمية وزوجها النظرات ، فمدّ يده إلى الباب يفتحه ويقول :

- حسناً ، لنذهب

قال قائد المجموعة :

- مهلا .. مهلا .. نفتّش المنـــزل أوّلا

وظهرت معالم الفزع في عيني سمية لحظة ، ولكنّها تمالكت نفسها وهي تقول :

– ماذا تريدون من المنـــزل ؟ .. ألم يقبل زوجي بفتح المتجر ؟ .. دعونا وشأننا ..

ودفع جنديان أبا ياسر إلى وسط الغرفة مجدّداً والقائد اليهودي يقول :

– وهل في المنـــزل ما تخافون عليه ؟

قال أبو ياسر :

– لا حقّ لكم بتفتيش منـــزلنا ؟

– لا حقّ لنا ؟ .. ولكم حقّ في إخفاء الأسلحة ؟ ..

أجاب أبو ياسر محاولاً دفع اليهودي للعدول عن عزمه :

– أسلحة ؟ .. من قال ذلك ؟ .. لو كان عندي أسلحة لأخفيتها في المتجر

– إذن نفتش المنـــزل والمتجر ..

وارتفعت قهقهته من جديد كأنّما أعجبته الفكرة ، وأشار إلى الجنود فانطلقوا يقلبون الأثاث رأساً على عقب .. و لم يستغرق الأمر طويلاً فإذا باثنين يعودان بعدد قليل من القنابل وكمية من الذخيرة .. وارتسمت علامات الغضب والدهشة على وجه اليهودي في آن واحد ، وهو يصيح :

– عليكم اللعنة .. أفي كلّ منـــزل نفتشه أسلحة ؟

وبدت علامات الخوف على وجه سمية ووقف أبو ياسر متأهّباً كأنّما نوى في نفسه أمـــرا .. وارتفـــع في تلـــك اللحظة صوت ابنه الصغير يبكي من الغرفة المجاورة .. وصاح اليهوديّ بجنوده :

– فتّشوا كلّ مكان ، واجمعوا كلّ ما تجدون

وخرج الجنود ثانية ، وتلفّت حوله عساه يرى مكاناً يصلح لإخفاء أسلحة ، فلم ير سوى مائدة الطعام وعدد من الكراسي وجهاز المذياع .. فضرب الجهاز بسلاحه فحطّمه

و لم يعثر الجنود على شيء ، فعادوا وصاح عقائدهم بصوت غاضب :

– إمش .. إمشِ أمامنا

وحمل الجنود الأسلحة ودفعوا أبا ياسر خارج المنـــزل وسميّة تلاحقهم بنظراتها ولا تقوى على الحركة أو الكلام ، حتى إذا اختفوا عن أنظارها ، سارعت إلى الباب تفتحه عازمة على اللحاق بهم .. وصرخت فزعة وهي تلمح القائد اليهودي وسط الطريق يوجّه الرشاش إلى زوجه ويطلق النار عليه فيهوي مضرّجاً بدمه .. وركضت زوجـــه نحـــوه تضمّه حيث سقط على الأرض وهي تردّد والعبرات تخنق كلماتها :

– لعنكم الله .. لعنكم الله

وألقى قائد المجموعة نظرة ساخرة عليها وهو يبتعد عن المكان بجنوده قائلا :

– زوجك حاول الفرار .. سنعود بعد أن تدفنيه ونفتّش الحيّ كلّه .. شالوم

وأجهشت بالبكاء ، فلم تسمع قهقهته مبتعداً وهي تحرّك وجه زوجها ويديه ، كأنّها ترجو أن يكون فيه رمـــق حياة بعد ..

وما كاد الجنود يختفون في الشارع المجاور حتى ظهرت عدة نساء من منازل الحيّ المجاورة فأسرعن إلى سميّة الحانية على زوجها ، ووصل بعد لحظات عدد من الرجال أيضاً سمعوا طلقات النار من المسجد القريب ، فهرعوا إلى المكان .. ولما رأوا الشهيد على الأرض ارتفعت أصوات بعضهم يسأل أين ذهب اليهود ، وأسرع بعـــضهم الآخـــر يريـــد اللحاق بهم ، وتقدّمت امرأة من سمية تحمل كأساً من الماء وتقول لها مواسية :

– اشربي يا أمّ ياسر ، ولا تحزني .. زوجك في الجنّة إن شاء الله

وعرفت سميّة صاحبة الصوت ، فرفعت بصرها إليها واستجمعت قوتها لتقول والدموع تغشى عينيها :

– أنت ؟ .. أتذكّرينني بما قلته لك قبل أيام ؟ .. لعنهم الله وخذلهم

وتغلّب بكاؤها على صوتها ، فأمسكت المرأة بيدها تبعدها برفق عن الشهيد ، وتقدّم رجلان فحملاه واتجها بـــه إلى المنـــزل .. فإذا بصوت أذان العصر يرتفع من مأذنة المسجد

– الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر

وجمد الجميع في أماكنهم لحظات ، وقال كهل وسط الجمع المحتشد :

– لنذهب به إلى المسجد .. وارتفعت أصواتٌ تؤيّده ، فحملوه على أكتافهم يسيرون في موكب صـــامت نحـــو المسجد ، والنساء من ورائهم ، وصوت المؤذّن في أسماعهم

أشهد ألاّ إله إلاّ الله .. أشهد ألاّ إله إلاّ الله .. أشهد أنّ محمداً رسول الله .. أشهد أنّ محمداً رسول الله .. حـــيّ على الصلاة .. حيّ على الصلاة .. حيّ على الفلاح .. حيّ على الفلاح .. الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله

* * *

المشهد القادم : ياسر وأمّه

* * *